حياة أعظم الرسل

محمّد في طريقه إلى المدينة

مُحَمَّد فِى طَرِيقِهِ إِلَى المدِينَة

مَكَثَ مُحمدٌ وَصَدِيقَهُ أَبُو بَكرٍ ثَلاَثَة أَيَّامٍ فِى غَارِ ثَوْرٍ ، وَقَد رَجَعَ الأَعدَاءُ الَّذِينَ كَانُوا يَبحَثُونَ عَنهُ . وَبَكَى أَبُو بَكرٍ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ ، وَتَأَكَّدَ الْآنَ أَنَّ حَيَاةَ الرَّسُولِ قَد زَالَ عَنهَا الْخَطَرُ . وَسَجَدَ الْمُصْطَفَى شُكرًا لِلَّهِ. وَقَدِ اعتَادَ عَبدُ اللهِ ابنُ أَبِى بَكرٍ أَن يَذهَبَ لَهُمَا كُلَّ لَيلَـةٍ سِرًّا ، وَيُخبرَهُمَا بَأَخبارِ مَكَّةَ . وَاعتَادَت أَسماءُ بِنتُ أَبِى بَكرٍ أَن تَأْخُذَ الطَّعَامَ لَهُمَا

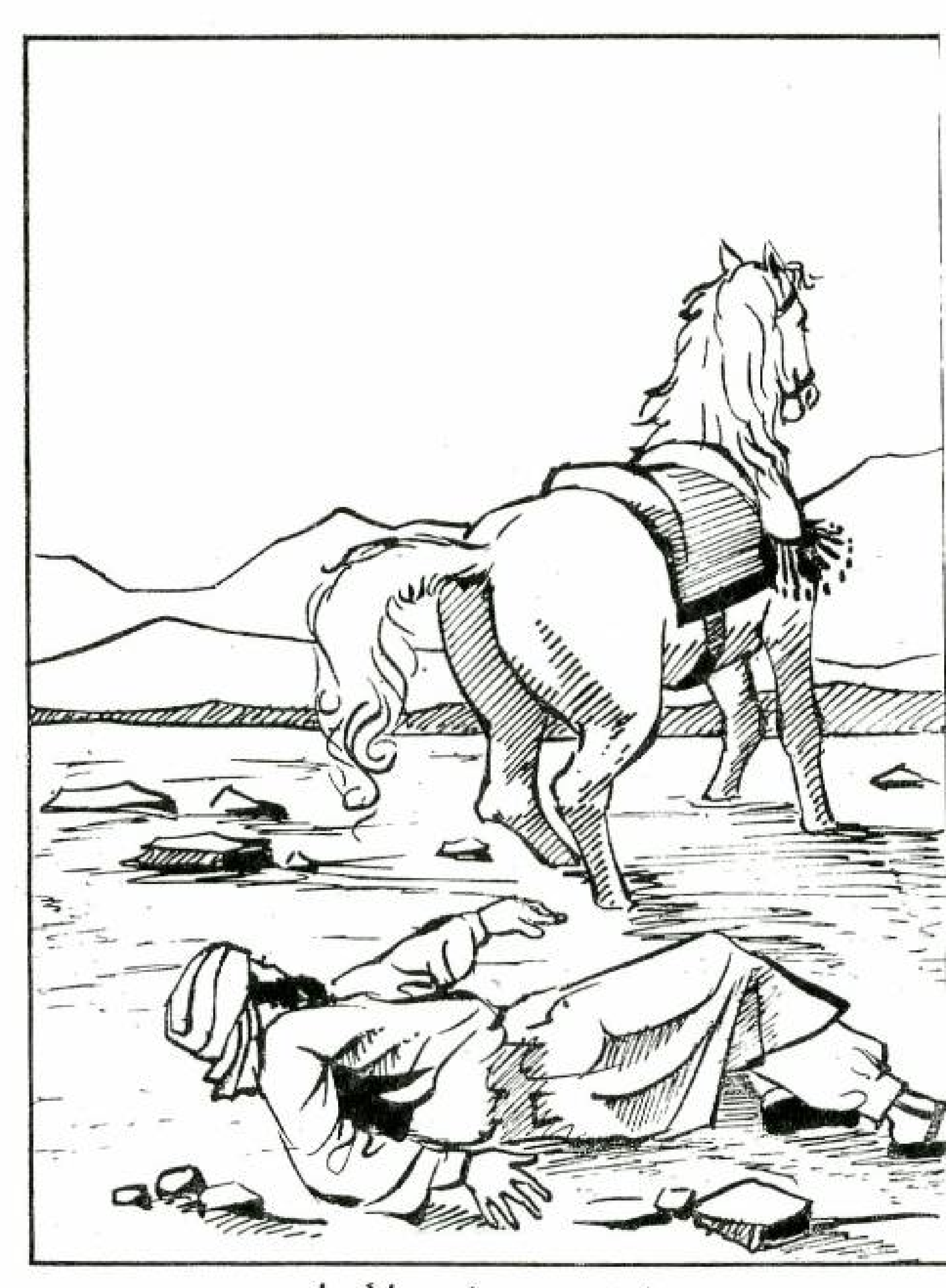
مُدَّةَ وُجُودِهِمَا فِى الْغَارِ . وَفِى الْيَومِ الرَّابِعِ أَخبَرَهُما عَبدُ اللهِ بِأَنَّ الْبَحثَ عَنهُمَا قَد قَلَّ . فَعَزَمَا عَلَى أَن يَترُكَا الْغَارَ تِلكَ اللَّيلَةَ ، وَيَتَوَجَّهَا إِلَى المَدِينَةِ ، وَيَتَّبِعَا الطَّرِيقَ الَّذِى لاَ يُستَعمَلُ كَثِيرًا ، حَتَّى لاَ يَستَطِيعَ أَحَدٌ أَن يَرَاهُمَا .

سَمِعَ سُرَاقَةُ بنُ مَالِكٍ مِن أَحَدِ الْبَدْوِ أَنَّ ثَلاثَةً قَابَلُوهُ فِى الطَّرِيقِ إِلَى المَدِينَةِ ، وَلَمَّا سَأَلَهُ عَن أَوصَافِهِم عَرَفَ فِيهِم مُحَمَّدًا وَصَاحِبَهُ . فَطَمِعَ فِى الْجَائِزَةِ ثُمَّ أَخَذَ فَرَسَهُ وَسِلاَحَهُ ، وَاتَّبَعَ أَثَرَ رَسُولِ

اللهِ ، وَوَقَعَ بِهِ فَرَسُهُ فِى الطَّرِيقِ عِـدَّة
مَرَّاتٍ . وَلَم يَمْنَعْهُ ذٰلِكَ عَـن مُتَابَعَـةِ
الرَّسُولَ حَتَّى لَحِقَهُم . وَرَآهُم فَوَقَعَ بِهِ
فَرَسُهُ ، وَسَقَطَ عَلَى الْأَرضِ سُرَاقَـةُ .
فَخَافَ خَوْفًا شَدِيدًا ، وَمَلَأَ الْخَـوْفُ
قَلْبَهُ . وَأَخَذَ يُنَادِيهِم بِأَسمَائِهِم ، وَيَرجُو
مِنهُم الْأَمَانَ ، وَيَقُولُ : وَاللهِ لاَ يَأتِيكُم
مِنِّى أَىُّ شَىْءٍ تَكرَهُونَهُ . إِنِّى أَعلَمُ أَنَّكُمَا
قَد دَعَوْتُمَا عَلَىَّ ، فَادْعُوَا لِى ، حَتَّـى
أَنجُوَ . وَلَكُمَـا عَلَـىَّ أَن أَرُدَّ النَّـاسَ
عَنكُمَا ، وَلاَ أَضُرَّكُمَا . وَقَد تَأَكَّدَ سُرَاقَة

أَنَّ اللهَ قَدِ انتَقَمَ مِنهُ مِن أَجلِ مُحمدٍ .
وَاعتَقَدَ أَنَّهُ تَقِيٌّ صَالِحٌ . وَسَيَنجَحُ فِي أَدَاءِ
رِسَالَتِهِ . فَوَقَفَ الرَّسُولُ وَأَبُو بَكرٍ لَهُ .
وَقَالَ الرَّسُولُ لِأَبِي بَكرٍ : قُلْ لَهُ :
وَمَا الَّذِي تَطلُبُهُ مِنَّا ؟

قَالَ : تَكتُبُ لِي كِتَابًا يَكُونُ عَلامَةً
بَيْنِي وَبَينَكَ ، وَتَعفُو عَنِّي . فَعَفَا عَنهُ
الرَّسُولُ وَأَلْقَى إِلَيهِ كِتَابًا ، فَأَخَذَهُ ،
وَرَجَعَ إِلَى قُرَيشٍ ، وَلَم يَذكُرْ شَيئًا عَنِ
الرَّسُولِ وَأَبِي بَكرٍ لِمُدَّةِ ثَلاثِ لَيَالٍ . ثُمَّ
أَخبَرَ الْكُفَّارَ بَعدَهَا بِمَا حَدَثَ لَهُ . فَلامَهُ



وَقَعَ سُرَاقَةُ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْحِصَانُ أَنْ يَقُومَ

أَبُو جَهلٍ حِينَ رَجَعَ وَلَم يَقبِضْ عَلَـى مُحَمَّدٍ .

الرَّسُولُ يَمُرُّ بِأُمِّ مَعْبَدٍ :

وَفِى أَثنَاءِ الْهِجرَةِ كَانُـوا يَختَفُـونَ نَهارًا ، وَيَركَبُونَ لَيلاً ، وَيَسِيرُونَ فِى طَرِيقٍ مَهجُورٍ . وَقَد مَرَّ الْمُصطَفَى وَمَن مَعَهُ بِخَيمَةِ أُمِّ مَعبَدٍ . وَكَانُوا فِى شِدَّةِ الْجُوعِ . وَلَم يَكُنْ عِندَهَا إِلاَّ نَعجَـةٌ هَزِيلَةٌ ، لَيسَ فِيهَا أَىُّ لَبَنٍ . فَاستَأْذَنَهَا الرَّسُولُ فِى أَن يَحلُبَهَا . فَأَذِنَت لَـهُ .

فَحَلَبَهَا وَكَثُرَ لَبَنُهَا ، وَشَرِبُوا جَمِيعًا أَكْثَرَ مِن مَرَّةٍ بِبَرَكَةِ الْمُصطَفَى .

وَمَكَثَ أَهْلُ أَبِى بَكرٍ ثَلاَثَ لَيَالٍ لاَ يَعلَمُونَ أَينَ ذَهَبَ ، حَتَّى سَمِعُوا رَجُلاً يَتَغَنَّى بِأَبيَاتٍ ، وَالنَّاسُ يَسِيرُونَ وَرَاءَهُ إِلَى أَعلَى مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ :

جَزَى اللهُ رَبَّ النَّاسِ خَيرَ جَزَائِهِ

رَفِيقَيْنِ حَلاَّ[١] خَيْمَتَىْ أُمِّ مَعبَدِ

فَعَلِمُوا وِجهَةَ الرَّسُولِ فِى هِجرَتِهِ مَعَ

---

(١) نَزَلاَ .

أَبِى بَكرٍ ، وَهِىَ الْمَدِينَةُ . وَسَمِعَت قُرَيشٌ ذَلكَ الغِنَاءَ ، فَأَرسَلُوا إِلَى أُمِّ مَعبَدٍ ، وَهِىَ بِخَيْمَتِهَا ، فَسَأَلُوهَا : هَل مَرَّ بِكِ مُحمدٌ الَّذِى مِن صِفَتِهِ كَذَا ؟

فَقَالَت : لاَ أَدرِى مَا تَقُولونَ . وَإِنَّمَا جَاءَنِى ضَيفٌ حَلَبَ الشَّاةَ الضَّعِيفَةَ .

أهلُ المَدِينَةِ يَنتَظِرونَ مَجِىءَ الرَّسُولِ :

سَارَ النَّبِىُّ ﷺ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكرٍ ، وَالمُرشِدُ لَهُمَا حَتَّى رَأَوْا أَشجَارَ النَّخِيلِ ، وَالْحَشَائِشَ ، وَالْمِيَاهَ ، وَوَصَلُوا إِلَى

مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَدِينَةِ يُسَمَّى قُبَاءً[١]،
بَعدَ أَن مَكَثُوا سِتَّةَ أَيَّامٍ فِى رِحلَتِهِم .

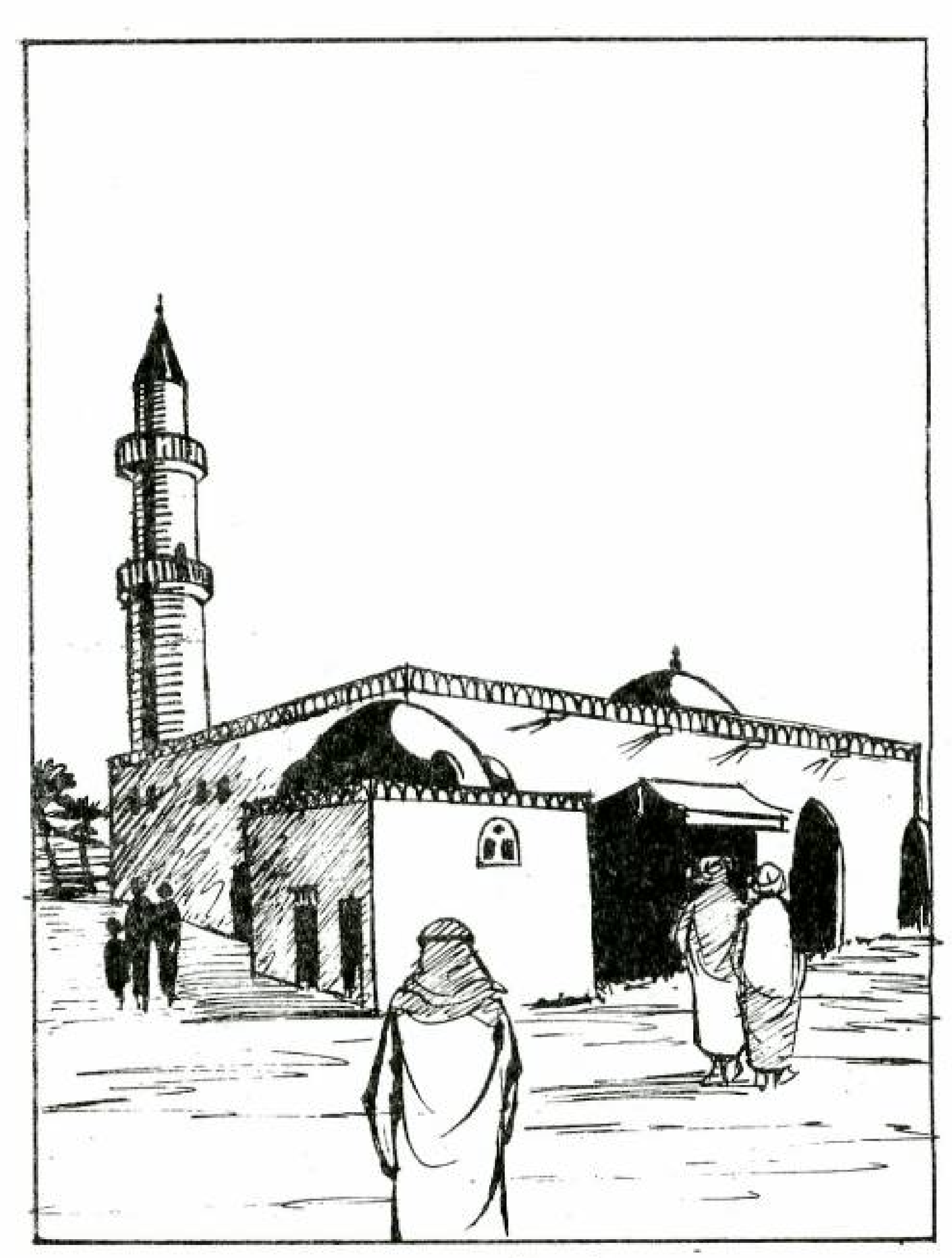
نَزَلُوا فِى قُبَاءٍ ، وَاستَرَاحُوا تَحتَ ظِلِّ
أَشجَارِ النَّخِيلِ ، وَشَكَرُوا لِلّٰهِ مُسَاعَدَتَهُم
فِى الوُصُولِ إِلَى هُنَاكَ سَالِمِينَ .

وَكَانَ أَهلُ مَكَّةَ لاَ يَزَالُونَ يَبحَثُونَ عَن
مُحمدٍ لِقَتلِهِ ، وَأَهلُ الْمَدِينَةِ يَبحَثُونَ عَنهُ
لِلتَّرحِيبِ بِهِ ، وَالاِحتِفَالِ بِمَجِيئِهِ . وَفِى
كُلِّ يَومٍ يُرسِلُونَ رِجَالاً لِمُرَاقَبَةِ الطَّرِيقِ ،

---

(١) مَوضِعٌ بالحِجَازِ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ .

وَانتِظَارِ مَحمَّدٍ عِندَ وُصُولِهِ ؛ فَقَد سَمِعُوا أَنَّهُ تَرَكَ مَكَّةَ ، وَلٰكِنَّهُم لَم يَعلَمُوا أَنَّـهُ مَكَثَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِى غَارِ ثَورٍ . وَلِهٰـذَا قَلِقُوا عَلَى الرَّسُولِ ؛ لِأَنَّـهُ تَأَخَّرَ فِـى الوُصُولِ أَيَّامًا . ثُمَّ وَصَلَتِ الْأَخبَارُ إِلَى الْمَدِينَةِ بِأَنَّ مُحمدًا الْعَظِيمَ قَد وَصَلَ إِلَى قُبَاءٍ آمِنًا بِحَمدِ اللّٰهِ . وَقَد نَادَى أَحَـدُ الْيَهُودِ بِأَعلَى صَوْتِهِ : أَيُّهَا الْعَرَبُ ، هٰذَا حَظُّكُمُ الَّذِى تَنتَظِرُونَهُ قَد جَاءَ . فَأَخَذُوا أَسلِحَتَهُم ، وَذَهَبُوا جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ لِلتَّرحِيبِ بِالرَّسُولِ ، وَتَهنِئَتِهِ بِسَلاَمَـةِ



مَسجِدُ قُبَاءٍ بِالقُربِ مِنَ المَدِينَةِ

الْوُصُولِ . وَقَد نَزَلَ الرَّسُولُ بِقُبَاءٍ عَلَى بَنِى عَمْرِو بنِ عَوْفٍ فِى اليَومِ الثَّامِنِ مِن رَبيع الْأَوَّلِ ، المُوافِقِ ٢٠ من سبتمبرَ سَنَةَ ٦٢٢ مِيلادِيَّة . وَمَكَثَ بِهَا أَيَّامًا مُنتَظِرًا وُصُول عَلِيٍّ ابنِ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ .

وَأَوَّلُ عَمَلٍ قَامَ بِهِ فِى قُبَاءٍ هُوَ بِنَاءُ مسجِدٍ فِيهَا . وَقَدِ اشتَرَكَ فِى بِنَائِهِ بِأَقصَى جُهدِهِ ، وَعَمِلَ كَأَىِّ رَجُلٍ مِنَ الرِّجَالِ . وَهُوَ أَوَّلُ مَسجِدٍ بُنِىَ فِى الْإِسلامِ . وَقَد وَصَفَهُ اللهُ فِى سُورَةِ التَّوبَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِن أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فيهِ ، فِيهِ

رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا[١] ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ[٢] ﴾ . وَفِى هٰذَا الْمَسجِدِ أَدَّى الْمُسلِمُونَ صَلاَةَ الْجُمُعَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، وَفِيهِ كَانَت الْخُطبَةُ الْأُولَى مِن خُطَبِ يَوم الْجُمُعَةِ . وَقَد صَلَّى الْمُسلِمُونَ فِيهِ وَهُم آمِنُونَ مُطمَئِنُّونَ ، وَلَم يَخَافُوا أَحَدًا مِنَ الْمُستَهزِئِينَ أَوِ الْمُعتَدِينَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ . وَقَد أَحَسَّ الرَّسُولُ الْآنَ بِالْحُرِّيَّةِ ، وَحَمِدَ اللهَ ، وَشَكَرَ لَهُ . وَاستَطَاعَ أَن يَتَنَفَّسَ هَوَاءَ الْحُرِّيَّةِ وَالأَمَانِ وَالسَّلاَمِ .

---

(١) يُبَالِغُوا فِى الطَّهَارَةِ .

(٢) آية : ١٠٨ من سورَةِ التَّوبَةِ .

وَبعدَ أَن استَرَاحَ مُحمدٌ وأَصحابُـهُ ، رَكِبُوا إلَى الْمَدِينَةِ ، فَامتَلأَتْ بالأَفرَاحِ . وَكَانَ هٰذَا الْيَومُ عِيدًا عِندَهُم . وَأَرَادتْ كُلُّ قَبيلَةٍ فِى الْمَدِينَةِ أَن يَكُونَ الرَّسُولُ ضَيفَهَا ، وَلٰكِنَّ النَّبِىَّ النَّبيلَ لَم يُرِدْ أَن يَمَسَّ إحسَاسَ أَحَدٍ مِنَ الْأَنصَارِ ، فَقَالَ : (اُترُكُوا لِلنَّاقَةِ الْحُرِّيَّةَ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ) . فَسَارَت النَّاقَةُ فِى كَثِيرٍ مِنَ الطُّرُقِ ، وَفِى النِّهَايَةِ وَقَفَت عِندَ دِيَارِ بَنِى النَّجَّارِ ، وَهُم أَخوالُ أَبِيهِ ، وَبَرَكت أَمَامَ دَارِ أَبِى أَيُّوبٍ الْأَنصَارِىِّ .

فَنَزَلَ الرَّسُولُ ، وَفَرِحَ أَهلُ الْمَدِينَـةِ

بِحُضُورِ النَّبِيِّ فَرَحًا كَثِيرًا ، وَصَعِدَتِ النِّسَاءُ عَلَى سُطوحِ الْبُيُوتِ عِنْدَ مَجِيئِهِ يَقُلْنَ :

طَلَعَ الْبَدرُ عَلَينَا   مِن ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعْ
وَجَبَ الشكرُ عَلينَا   مَا دَعَا لِلّهِ دَاعْ
أَيُّهَا الْمَبعُوثُ فِينَا   جِئتَ بِالأَمرِ الْمُطَاعْ

وَتَفَرَّقَ غِلمَانُ (أَولَادُ) الْمَدِينَةِ يُنَادُونَ : جَاءَ مُحمدٌ رَسُولُ اللهِ . وَكَانَ عُمرُهُ ٥٣ سَنَةً .

وَقَد بَالَغَ أَهلُ الْمَدِينَةِ فِي إِكرَامِ الرَّسُولِ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَنَصَرُوهُ وَسَاعَدُوهُ وَعَاوَنُوهُ ، وَلِهٰذَا سُمُّوا بِالْأَنصَارِ ، وَسُمِّيَ مَن جَاءُوا إِلَيهِم بِالْمُهَاجِرِينَ . وَقَدِ استَمَرَّ

النَّبِىُّ فِى بَيتِ أَبِى أَيُّوبَ الأَنصَارِىِّ سَبعَةَ أَشهُرٍ . وَبَنَى مَسجِدَهُ فِى الْمَدِينَةِ ، وَاشتَغَلَ جَنْبًا لِجَنْبٍ بِكُلِّ قُوَّتِهِ مَعَ أَصحَابِهِ لِيُرِيَهُم أَنَّهُ إِنسَانٌ مِثلُهُم ، وَأَنَّ الْعَمَلَ شَرَفٌ . وَبِالْقُربِ مِن مَسجِدِهِ بَنَى بَيتًا لِأُسرَتِهِ ، وَاستِرَاحَةً لِفُقَرَاءِ الْمُسلِمِينَ . وَقَدِمَت زَوجَاتُهُ وَابنَتَاهُ فَاطِمَةُ وَأُمُّ كُلثُوم لِيَعِيشُوا مَعَهُ فِى الْمَدِينَةِ . وَتَلاَحَقَ قُدُومُ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ . وَكَانَ هٰذَا الْيَومُ ابتِدَاءَ عَصرٍ جَدِيدٍ لِلإِسلاَمِ وَلِلْمُسلِمِينَ .